مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية – سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (22) العدد (15) 2000
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research –Arts and Humanities Science Series Vol. (22) No (15) 2000

الفيلولوجيا وجذور الأسلوبية

الدكتور يعقوب البيطار*

(قبل للنشر في 2000/6/29)

□ الملخّص □

يتناول هذا البحث الجذور الأسلوبية؛ بتتبع منابعها الأولى، ثم يسير في مجراها، قاصداً الوصول إلى قعار هذه الجذور. وقد جاءت هذه الدراسة مقسمة إلى زوايا خاصة؛ تمثل كل زاوية وحدة قرائيـــة معينـــة، وعندما تنضم هذه الزوايا بعضها إلى بعض، تتكامل الرؤية، بحيث نضع أيدينا على جذور الدرس اللغوي.

فقد تناولت الزاوية الأولى مسألة ضبط النصوص التي تتعلق بدائرة اللغة، هي بدورها قد استمدت جذورها ورسمت مساحتها من دائرة الفيلولوجيا.

أما الزاوية الثانية، فقد تناولت الفيلولوجيا برؤية تطورية. بينما ركزت الزاوية الثالثة على التأصيل والتطوير، والرابعة على الرؤية التحليلية من خلال جهود علمائها. والخامسة ترتكز بشكل أساسي وبارز على النصوص المكتوبة.

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (22) العدد (15) 2000
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research -Arts and Humanities Science Series Vol. (22) No (15) 2000

Philology and Stylistic Roots

Dr. Yaacoub AL-BITAR*

(Accepted 29/6/2000)

☐ ABSTRACT ☐

This research is concerned with stylistic roots by pursuing their first sources then following their unfolding for the sake of reaching the depths of these roots. This study is characterized by special angles each of which represents a certain reading unit. When these angles are organized together the vision becomes integrated so that we may discover on the roots of linguistic lesson.

The first angle has discussed the question of regulating the texts that are connected with the language circle which in turn has derived its roots and drawn its area from the philology circle.

The second angle has discussed philology with an evolutionary vision, whereas the third angle has concentrated on deep-rootedness and development, and the fourth angle has concentrated on the analytical vision through the efforts of its scientists. And the fifth angle concentrated on the written texts.

* Associate professor at the Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

تقوم دراستنا للأسلوب على أسس ثابتة لأنها تهتم بمنبعها، ولم تأخذ ثمرتها اليانعة جاهزة مقطوفة، بل آثرت بذل الجهد وخوض هذه الرحلة التي نراها وعرة، لا بل شديدة الوعورة؛ لأننا سنسير عبر نصوص قديمة لا يعرف لها تاريخ، كما لم يحدد لها مؤلف معين يمكن الوقوف على لغته، ومن ثم الوقوف على أسلوبه.

وقد جاءت الدراسة في هذا البحث مقسمة إلى زوايا خاصة، تمثل كل زاوية وحدة قرائية معينة، وعندما تنضم هذه الزوايا بعضها إلى بعض، تتكامل الرؤية، بحيث نضع أيدينا على جذور الدرس الأسلوبي:

الزاوية الأولى:

إن دراسة الأسلوب تقع في دائرة اللغة، التي استمدت جذورها، ورسمت مساحتها من دائرة أخرى أساسية، هي دائرة الفيلولوجيا. لقد وضعت البذور الأولى لدراسة الأسلوب في هذه الدائرة، فنمت، ثم تعهدها علم اللغة بالري والرعاية حتى استوت على سوقها، وآتت أكلها الناضجة، مرتبطة في ذلك بمراحل لغوية مهمة، حيث مثلت كل مرحلة ارتقاءً معيناً.

فالتأصيل لدراسة الأسلوب يجب أن ينطلق من هذه الدائرة أولاً؛ وذلك لطبيعة الإجراءات القرائية للنص "الفيلولوجي". ومن هنا يبرز التساؤل المهم حول الوظيفة "الفيلولوجية" بأبعادها. وتتركز وظيفة "الفيلولوجيا" – بصفة أساسية- على دراسة النصوص دراسة لغوية، بقصد الوصول بتلك الدراسة إلى اتجاهات مختلفة. ولكن ميدان هذه الدراسة ليس محدداً بوظيفة واحدة، حيث تتشعب مجالات تشريح النص "الفيلولوجي" بأبعاده إلى طرق متعددة، ومن ثم يأتي ثراء الدرس، والتحليل "الفيلولوجي".

وإذا كانت الدراسة الأسلوبية الحديثة ترتكز – أيضاً – وبصفة أساسية على دراسة النص، وغالباً ما يكون هذا النص مكتوباً، فإن ثمة التقاءً بارزاً بين الإجراءات " الفيلولوجية" دراسة الأسلوب وإجراءاته من حيث الوظيفة الأولية، أو بمعنى أوضح، إن هناك التقاءً بين مهمة دراسة " الفيلولوجيا " ومهمة دراسة الأسلوب نفسه.

وعالم الفيلولوجيا " Philologist " يعمد إلى نصوصه المكتوبة بميضعه التشريحي، متناولاً كل جزء منه، محللاً ومستخرجاً كل ما به من أبعاد لغوية، مفجراً طاقاتها الدلالية، حيث يرى أصولاً تطورية ورموزاً تاريخية، ولذا فإنه العلم الذي يدرس اللغة من خلال النصوص المدونة لمعرفة الدلالات التاريخية التحولية. وهناك عوامل وطرق تساعد على تأسيس الجانب "الفيلولوجي"؛ منها: تحقيق النص وتوضيح نسبته إلى مؤلفه، وشرح وتأويل المفردات والمصطلحات والأساليب الأدبية والسردية وتوضيحها، وربطها بسياق الزمن المؤلفة فيه، من حيث الطبيعة والخصائص.

فالدراسة "الفيلولوجية" المجراة على النص المقروء (المدروس)، تؤكد أنها نصوص ذات طابع معين، لها لغاتها الخاصة بها – كذلك – ملامحها، فهي إذن نصوص منتقاة؛ لأنها تخضع لمعايير اختيارية دقيقة. والانتقاء في الدراسة الأسلوبية يعد من أهم الجوانب، من حيث وجود الرؤية الذاتية للكاتب، وكذلك للنص.

ويتم الاختيار الفيلولوجي من جانبين: الأول: جانب النص المدروس ذاته، وانتقاؤه وفق شروط وصفات معينة، ليكون مجالاً للفحص الدراسي التشريحي في كل اتجاهاته (الفيلولوجية). والجانب الثاني: يقف عند دراسة الأساليب وطرق تكوينها، أي أنه يهتم بدراسة أساليب معينة تكونت بجوانب اختيارية، كذلك

من خلال كاتبها نفسه، وذلك في الزمن المنسوب إليها، وذلك تتكون الاختيارية اللغوية الأسلوبية الدالة التي تفجر الدلالات المطلوبة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن طبيعة الدراسة التطبيقية لهذه النصوص "الفيلولوجية" ملتزمة بخطوات منتظمة، تتضمن إجراءات أسلوبية أخرى، حيث يقسم النص "المدروس" إلى أمشاج لغوية، وتمثل هذه الأمشاج بألوانها اتجاهات متعددة مقصودة الهدف. " ولذلك كانت الدقة والبراعة أهم الأمور التلقائية الإجرائية التي يتميز بها البحث " الفيلولوجي " ذاته ". وتنعكس هذه البراعة عند عالم "الفيلولوجيا" "Philologist" على الزوايا المتعددة المستخدمة في تشريح النص. ولكن الدراسة الأساسية المركزة، هي الدراسة اللغوية، وربطها بأمشاج النص لمعرفة الملامح التطورية للظواهر اللغوية. ومن هنا كانت المقارنات القائمة التي تهتم بطبيعة هذا التطور والتي تعتمد على أصول استنتاجيه من خلال النص بسياقاته، وتراكيبه، كما تهتم – أيضاً – بتفجير الطاقات الدلالية ذات الشُعَب المتعددة الجوانب.

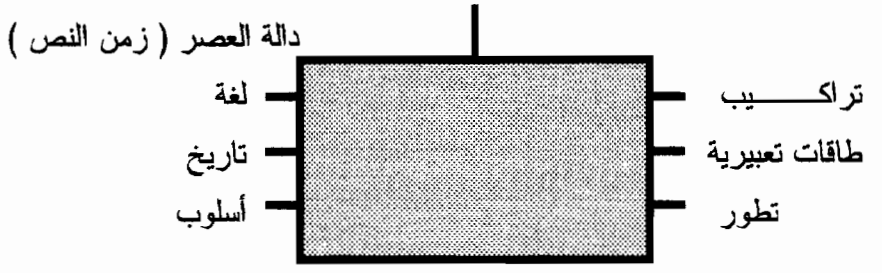

أمشاج النص " الفيلولوجي "

الزاوية الثانية:

تتصل هذه الزاوية برؤية تطورية "للفيلولوجيا" عند العالم "دي سوسير"، حيث يشير إلى ميدان هذا العلم، معبراً عن قدمه الضارب في التاريخ البعيد، فيقول: " ظهرت " الفيلولوجيا " قديماً، وقد سبق أن وجدت بالإسكندرية مدرسة " فيلولوجية "؛ إلاَّ أن هذه التسمية تقترن خاصة بتلك الحركة التي أنشأها "فريد ريش أوغسطس وولف" بداية من سنة (1777 م)، والتي ما زلنا نشهد اليوم تواصلها".

ومن خلال قول " دي سوسير " هذا تلمس أمرين: **الأول:** قدم الدراسة " الفيلولوجية"، وهذا يدل على التأصيل الجذري لها، فقد وجدت لها اتجاهات ومدارس معينة منذ القدم، ومدرسة الإسكندرية واحدة من تلك المدارس. وبالطبع فإن نشأة المدارس الفنية للدراسة أمر دال على مرحلة ناضجة لهذا العلم.

إن قدم "الفيلولوجيا" – كما أشرنا – غير محدد بأبعاد معينة، ولكن الإشارة إلى وجود مدرسة" فيلولوجية " بالإسكندرية أمر يدل على أن البذور "الفيلولوجية"، قد وجدت عناية واهتماما، ولم تترك في ارض غير صالحة للازدهار، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن ذلك يدل على أن زوايا هذه الدراسة نشأت ثابتة وقوية.

وأما الأمر الثاني الذي نلحظه من قول "دي سوسير"، فهو استمرار التيار "الفيلولوجي" وسيطرته على الدرس اللغوي في عصور متتابعة – ويدخل في ذلك عصر دي سوسير نفسه– وهذا أمر دال على تواصل الدراسات النصية ذاتها، والركون إليها تماماً في البحث اللغوي المتعدد الجوانب، فهي أساس استنتاجات علم اللغة.

إذن فرحلة "الفيلولوجيا" التطورية منذ جذورها الأولى لم تكن رحلة رتيبة، وإنما خطواتها كانت عملية تطورية جادة، وزواياها كانت ترسم بدقة متناهية، وقد اجتهد كثير من علمائها المعروفين في تأصيل وتطوير مناهج دراستها، مرحلة بعد أخرى، فلم تقف "الفيلولوجية" عند حد ضيق فلا تطيق السير في الدروب الخاصة للدراسات الحديثة كما يتوهم بعض الدارسين، ولكن بجانب هذه الزوايا التأصيلية، وجدت دوائر الازدهار الفيلولوجي القائمة على دينامية فعالة.

الزاوية الثالثة:

"وولف "الذي أشار إليه" دي سوسير "هو عالم لغوي كبير، اقترنت "الفيلولوجيا" باسمه في تحركاتها الواثقة، لقد سار بهذا العلم خطوات رائدة تتمثل آثارها في زاويتين، هما: التأصيل والتطوير، حيث أقام دراسته في هذا المجال على حركية (دينامية) إيجابية، وذلك من خلال الدراسات المقارنة، أو ما عرف بالنقد المقارن. فلم يقنع "وولف" بالدراسات اللغوية التقليدية لهذا العلم، ولهذا، تخطى الحدود المدرسية التعليمية له، ووقف على دراسة نصوص أدبية، ومعرفة الخصائص المميزة لكل أديب، وذلك من خلال التحليل النصي لأعماله.

وبهذا الجهد ينقل "وولف" الدراسة "الفيلولوجية" إلى صميم الدرس الأسلوبي، حيث ظهر ذلك بداية في عام 1777 م ؛ أي بعد منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، حين ابتدع ما عرف بالنقد المقارن للنصوص القديمة (2).

ومن هنا تزدوج الدراسة "الفيلولوجية"، بعد أن كانت أحادية الاتجاه في بحثها ودراستها للنصوص القديمة منفردة دونما مقارنة، وتظهر هذه الازدواجية في التقابل المقارن بين نصوص ونصوص أخرى من جوانب اللغة والأسلوب، الأمر الذي يدعو إلى تعميق الرؤية، ويركز الاهتمام على تتبع خصائص أسلوبية بارزة في العملين المقارنين.

وهذا الاتجاه "الفيلولوجي" المقارن يلزمه اهتمام بالنص المدروس "فيلولوجيا"، من حيث إعادة بنائه وفهمه "فقد كانت غاية هذا الاتجاه إعادة بناء النصوص الأصلية وتفسيرها"(3).

ومجمل هذه الإجراءات التي يقوم بها "وولف" في قراءته للنص "الفيلولوجي"تعطي مفهوماً جديداً للقراءة النصية، أو ما يعرف في عصرنا بمصطلح (إعادة القراءة) أو (القراءة الجديدة) حيث تمتزج الذات بالمقروء، ولا تنفصل القراءة هذه عن التفسير والتأويل، فمعنى القراءة بوجه عام لا ينفصل عن التفسير، ولا يبعد كثيراً عن التأويل؛ ذلك لأن القراءة – لغة– تتضمن معنى الضم والنطق والإبلاغ معاً (4).

وهذه الخطوات القرائية الإجرائية تتمثل بشكل معين في قراءة "وولف" الجديدة للنصوص "الفيلولوجية". إنه يعيد البناء النصي بتراكيبه، بضم نسيجه اللغوي إليه، وإعادة تركيبه من خلال مزج لثقافاته وخبراته القرائية بهذا النسيج اللغوي، فيجلوه، ويعود به إلى شكل قشيب، كما يضم أيضاً – إلى هذا النص المقروء رؤاه المتطورة فتنبثق النتائج وفقاً لهذا الجهد. وانطلاقاً من ذلك فإنه يبتعد عن الخطوات التقليدية برغم اهتمامها الأسلوبي المعروف، فعالم "الفيلولوجيا" لا يمارس دراسة اللغة من أجل اللغة، "ولكن لفائدة النص"(5).

ومعنى ذلك أن فائدة النص تتبع خطوات إجرائية أسلوبية، حيث العناية بطبيعة البناء من خلال التراكيب الدالة على خصوصية في الاستخدام، وهذا مجال الدراسة الأسلوبية العميقة.

جهود وولف في قراءة النص " فيلولوجيا "

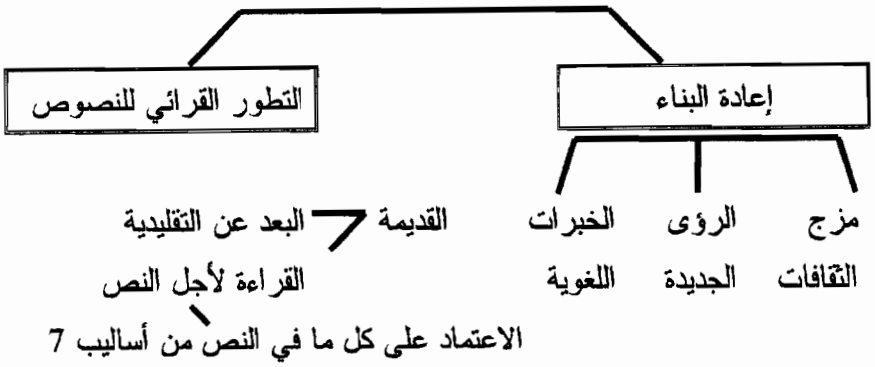

وقد افضى هذا المنهج القرائي الجديد بوولف إلى العناية الفائقة بأسلوب الكاتب وطبيعته، مما يعني البحث في الخصائص والملامح المعينة، التي تمثل التفرد الخاص لكل كاتب، أو ما يعرف بالبصمة الأسلوبية، التي لا تشير إلا إلى صاحبها وحده، فمن خلال خطواتها يمكن الوصول إلى علامات العبقرية الأدبية، ودراسة هذه العبقرية تحتاج إلى جهد نقدي بعيد، يعينه صبر على الدراسة الإجرائية التطبيقية لأعمال الأديب المقروء، واهتمام "وولف" بهذا الجانب ينقل الدرس "الفيلولوجي" خطوات وثابة قوية تجاه الدرس الأسلوبي الحديث ". إن وولف كان يدرس لغة هذا الأديب أو ذاك للكشف عن عبقريته الأدبية، ولفهمها فهماً أسلم "6".

وطبيعة العبقرية الأدبية تتجلى في خصائص التراكيب الأسلوبية المميزة للكاتب، وبذلك لا ترتكز الدراسة "الفيلولوجية" على حدود اللغة أو التطور اللغوي وحدها، وإنما تعد مثل هذه الدراسات خطوة أملى تجاه الولوج إلى أعماق النص، من خلال مقدرة الكاتب اللغوية ومن خلال النسج المتميز.

والتركيز على الملامح الذاتية "الشخصية" للأسلوب عند كاتب (ما)، لا يكون إلا من خلال التفاعل البنائي (التركيبي) للغة، وذلك بفضل العبقرية الشخصية – كما أشرنا ". فالأسلوب أولاً وأخيراً ظاهرة تتعلق بالفرد"(7). وهذا ما يدعو إليه "وولف" نفسه حيث يرتكز على دراسة أسلوب الكاتب من خلال نصوصه بقصد استخلاص المميزات الدالة، ولمعرفة درجات العبقرية. ويلتقي مع وولف –أيضاً– في هذه الدعوة أحد علماء الأسلوب في العصر الحديث لعله "ف–نشينشرين"، الذي اهتم بدراسة لغة المؤلفات الفنية (أي النصوص الأدبية المكتوبة) لمعرفة أسلوب الكاتب، وتتمركز هذه الدراسة في الزوايا اللغوية، ويتحقق ذلك بإجراءات أسلوبية تحليلية، تؤدي إلى تصنيف الخصائص الفردية، وهذه الإجراءات –كما يقول "هي الطريقة اللغوية الأسلوبية"(8).

وهذه العمليات الأسلوبية التي يدعو لها "نشينشرين" في مؤلفه "الأفكار والأسلوب"، المنشور عام 1964 م، هي ذاتها العمليات والخطوات التي دعا إليها "عام 1777م، فالتركيز على النص الخاص بالكاتب هو مجال الأسلوب، لذلك هو البصمة الدالة على طبيعة وشخصية الكاتب.

ولهذا يمكن المقارنة بين "وولف" و "نشينشرين" لمعرفة خيوط الالتقاء.

(وولف)	(نشينشرين)
1-التركيز على النص الأدبي المكتوب	1-الاهتمام بالنص المكتوب.
2-العناية بالإجراءات الأسلوبية التحليلية.	2-الاهتمام بالإجراءات الأسلوبية التحليلية الإجرائية.
3-تصنيف الخصائص والمميزات اللغوية.	3-تطبيق الطريقة اللغوية الأسلوبية.

وقد تمثلت جهود"وولف" وقفزته " الفيلولوجية" في هذه الأمور:

أولاً:

جاءت جهوده اللغوية الأسلوبية من خلال دراسة فعالة، ويقصد بها: الدراسة المقارنة التي ترمي إلى تعميق القراءة النصية، وذلك من طبيعة العمليات الأسلوبية الإجرائية.

ثانياً:

اعتمد "وولف" في مقارناته على أدوات معينة، أي أنه انطلق من أصول وأسس ساعدت على إقامة النقد المقارن، الذي هو برأيه، دراسة أسلوبية أصلاً.

ثالثاً:

أولى "وولف" دراسة الأسلوب الأدبي عناية مركزه، وهذا يتجلى في اهتمامه البالغ بالدراسة النصية للأديب، حتى يتكشف النص عن ملامح صاحبه، وهي دراسة تضرب بأعماقها في الاتجاه الأسلوبي الحديث.

رابعاً:

لقد تخطى "وولف" بدراسته الأسلوبية هذه الحيزّ اللغوي المدرسي، الذي وقف هدفه الأساسي في الدراسات الأولية السابقة على الكشف عن التعبير اللغوي وصحته، وجعل من أهدافه إدراك الحالة الحقيقية لطبيعة لغة النصوص المدروسة، والتي تؤدي – بدورها – إلى الاطلاع على الحالة اللغوية، وتحديد سماتها الخاصة.

الزاوية الرابعة:

- **دي سوسير بين التحليل والتنظير:**

لقد دَعَّم "دي سوسير" الدراسة "الفيلولوجية" بجهود خاصة تتمثل في الرؤية التحليلية لجهود علمائها، ثم إقامة التنظير المؤسس على ذلك. لقد أيقن – تماماً – أن اللغة ليست هي الهم الأول لعلماء "الفيلولوجيا"؛ لأن مثل هذه النظرة ستلقيها في حيز مكاني لا تبرحه، حتى تلفظ أنفاسها بين جدران هذا الحيز الضيقة، ولهذا يقول "وليست اللغة موضوع "الفيلولوجيا "الوحيد، أو أن هم أصحابها هو ضبط النصوص وتأويلها والتعليق عليها، وذلك لأن هذا الطور من أطوار الدراسة، سيفضي بهم إلى أن يعتنوا بتاريخ الأدب والأخلاق والمؤسسات، وغيرها، وكذلك سيعتمدون في كل هذه الميادين منهجهم الخاص الذي هو النقد"(9).

في هذا النص يرسم "دي سوسير" الخطوات التطورية التي صاحبت "الفيلولوجيا"، وذلك من زاوية عالم اللغة المجدد، حيث ربط ملامح هذه الخطوات التطورية بالعمليات الأسلوبية الإجرائية.

والنظام القرائي الأسلوبي "للفيلولوجيا" – كما يرسمه دي سوسير – يعتمد على توالي المراحل التي تسير في وحدة متماسكة، كما تلاحظ ذلك من قوله، وبهذا تظهر الصلات الوشائجية الرابطة بين خطواتها،

وتأخذ هذه الخطوات (دينامية) متلاحقة ترتكز على زوايا تأسيسية مرحلية متتابعة و متماسكة، تشكل مثلثاً تؤسس زواياه كالتالي:

الزاوية الأولى: ضبط النصوص.

الزاوية الثانية: التأويل بعد الشرح والتفسير.

الزاوية الثالثة: التعليق.

وبجانب هذه الزوايا الأساسية، نرى مساحة أخرى ممتدة تلحق بها، تتكون من زوايا الأدب والأخلاق والمؤسسات وغيرها. بجانب زاوية النقد الأصلية.

وتقوم الزاوية الأولى في مثلث "دي سوسير" على العمليات التحقيقية التي تحتاج بالطبع إلى جهود ومعرفة شاملة، وهذا الضبط يعوزه الجهد النقدي والخبرة الأدبية في التعامل مع الجوانب التطبيقية والخطوة الفيلولوجية الأولى تتطلب دائماً. تمثّل الدقة الضبطية للنص. وهذه الخطوة المهمة تدل على أن التعامل "الفيلولوجي" المنهجي ليس تعاملاً قائماً على الشكل اللغوي، بعيداً عن العمق الدلالي"، فالدقة الدائمة هي من أهم الأمور الطبيعية التي يتميز بها البحث "الفيلولوجي".

وزاوية الضبط النصي هذه لا تقف عند خطوة واحدة، بل إنها خطوات متداخلة ومتكررة، تحتاج إلى خبرات أسلوبية تاريخية معينة، تقوم على معرفة مركبات النص اللغوية وتحليلها للوصول إلى ضبطها، وهذا الضبط يُعَدُّ بمثابة القراءة الأولية، أو القراءة التأسيسية الخاصة التي تُمهدّ الطريق لقراءات قادمة.

وتعتمد الزاوية الثانية لمثلث "دي سوسير" على الجانب التأويلي، والتأويل بطبعه خطوة يسبقها خطوات تمهيدية، ويعد هذا الاتجاه مرحلة "فيلولوجية" تطورية جاءت بعد ضبط وشرح وتفسير، وهذه الأمور تعد إجراءات أسلوبية لقراءة النص الأدبي.

إننا نلحظ من هذه الإجراءات أبعاداً ترتيبية تعمل في شكل منتظم، حيث تسير المراحل القرائية في منظومة مهذفة تشملها الدقة المتناهية، من هنا تلتقي القراءة الفيلولوجية – كما يشير دي سوسير بالقراءة الأدبية الإبداعية.

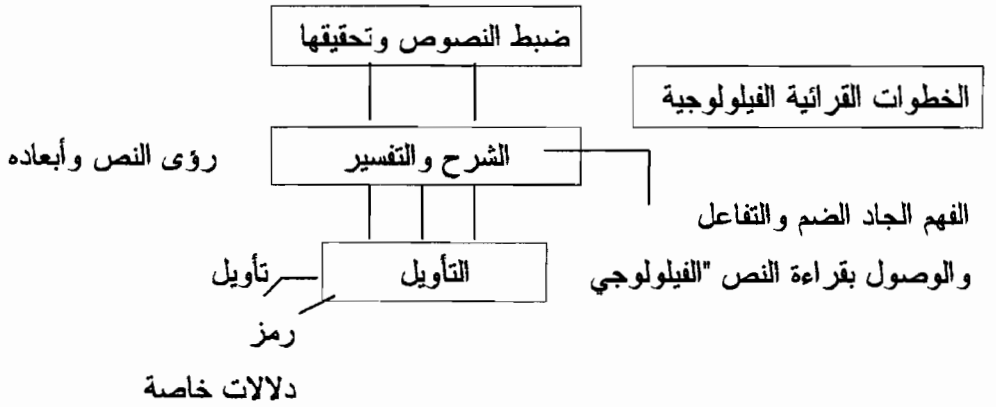

كما يشير دي سوسير نفسه – يُعد انتقالة تطورية لحقت هذا العلم، فالتأويل مرحلة ارتقائية لفن القول، ففي القرآن الكريم نرى الإشارة إلى مكانة التأويل وربطها بالاصطفاء وذلك في قوله تعالى "وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك"(10).

حيث المصطلح في مادته (أوّل) يعني التدبير والتقدير والتفسير، يقول ابن منظـور: (أوّل) الكـلام يتأوله ، دبره وقدره، وأوّله وتأوّله: فسره، وقوله عز وجل "ولما يأتهم تأويله أي لم يكن معهم علـم تأويلـه، وهذا دليل على أن علم التأويل ينبغي أن ينظر فيه"(11).

وتقوم الزاوية الثالثة من هذا المثلث معتمدة على التعليق على النص بعد هـذه المراحـل العلميـة التطبيقية، تؤكد هذه الزاوية ارتباط القراءة "الفيلولوجية" بالعملية الإبداعية (القرائية)، والتي رسّـخ وجودهـا العالم "الفيلولوجي" "وولف"، فالتعليق يعد قراءة أخرى للنص، أو هو إعادة بناء حيث تبدو التفاعلات النقديـة في حركتها الإبداعية المعبرة والكاشفة عن أسرار جديدة.

وكما رأى دي سوسير، فإن هناك مساحات أخرى تلتحم بتلك الزوايا، وتتكون هذه المساحات مـن حيز التاريخ والأدب والأخلاق، وكذلك المؤسسات، وبذلك الاتساع تتداح دوائر شاسعة المدى، تتمـاس مـع الزوايا في حركة فاعلة غير (ساكنة).

إن التحليل "الفيلولوجي" لا يقف على الجوانب اللغوية وحدها، بل يمتد إلى البعد الأدبي، ثم التاريخ الأدبي، أيضاً، وهذا يدل على أن النص المدروس في حيّز "الفيلولوجيا" ينطلق إلى آفاق متعددة رحبة تلـتحم بالاتجاهات الأدبية، فالنص الفيلولوجي إذن هو نص أدبي في المقام الأول.

وتلتحم بالنص "الفيلولوجي" في دراسته مساحات أخرى من الأخلاق والمؤسسات (فروع المعرفـة المتعددة الأخرى)، فتدخل مع هذه الفروع المساحات التاريخية والجغرافية(12).

وتأصيل " دي سوسير "للرؤية" الفيلولوجية "في قراءة النص، لا يقف عند هـذا المثلـث بزوايـاه ومساحته التي تدخل مع مساحات أخرى، فهناك امتدادات توليدية أخرى، تظهر عند حديثـه عـن علمـاء الفيلولوجيا ودراستهم للمسائل اللغوية"، إن هم انبروا يدرسون المسائل اللغوية، فإنهم إنما يفعلون ذلك خاصة للمقارنة بين نصوص في عهود مختلفة لتحديد اللغة الخاصة لكل كاتب، أو لرفع العجمـة عـن الكتابـات المنقوشة في لغة عتيقة أو غامضة "(13).

في هذا القول نلمح امتصاص "دي سوسير" لآراء أستاذه "وولف، كما يضيف أيضاً زوايـا قرائيـة جديدة للمنظور" الفيلولوجي". فالمقارنة زاوية مهمة وأساسية في رؤية "وولف". عندما أصّل – كما أشرنا – للنقد المقارن وهذا تطور يحتاج إلى طبيعة ثقافية خاصة، فلا يقف عالم " الفيلولوجيا " على لغته وحـدها، أو لغة النص المدروس، وإنما ينطلق إلى آفاق النصوص الأخرى في لغاتها المتعددة: نطقـاً وتحلـيلاً وبنـاءً وتركيباً، وإلى جانب كل ذلك يجب فهم طبيعة المفردات وتاريخها وأبعادها في كل لغة من اللغات المقارنة.

وبجانب المقارنة " الفيلولوجية " على مستوى النصوص المغايرة، تـأتي حركـة (ديناميـة) بـين النصوص التي هي من لغة واحدة، وهي حركة الموازنة، حيث يوازن النص " الفيلولوجي" المقروء بنصوص أخرى من ذات اللغة في عصور مختلفة.

ويشير " دي سوسير " في نصه هذا إلى الوظيفة الفعّالة لعالم " الفيلولوجيا "، التي تتمثل في تحليل اللغة الخاصة لكل كاتب، والوصول بهذا التحليل إلى مراكز الإبداع الخاصة، فيلتمس من هناك الملامح الدالة على أسلوبه وعبقريته، وهذا الجهد – بطبيعته – يحتاج إلى جهود ذاتية وأدوات نقدية يُحكم الناقد "الفيلولوجي" استخدامها.

هنـا يبـدو تأثيـر "وولف" في نظريـة القراءة "الفيلولوجية" الاستفتاحية عند "دي سوسير".

ولا تقف الدراسة الأسلوبية " الفيلولوجية " عند هذه الحدود كما يرى " دي سوسير "، بـل تضـاف إليها عمليات قرائية أخرى، تتمثل في رفع العجمة عن النص " المنقوش " في لغة عتيقة أو غامضة. وهـذا

الأمر يحتاج إلى إعادة بناء قائم على ثقافات متشعبة، فينطلق عالم " الفيلولوجيا " من النص القديم بلغته البعيدة، أو الغامضة، باذلاً جهوده في اتجاهات شتى لرفع العجمة، أو الغرابة عن لغة النص " الفيلولوجي"، وهذه الجهود تحتاج إلى معرفة أخرى تتصل بأسلوبية النصوص القديمة " الغامضة " والغريبة، فينطلق العالم " الفيلولوجي " إلى قراءة إجرائية لربط النص بلغته، وتاريخ مفرداتها، وحركة تراكيبها، وطبيعتها المميزة، وهذه النصوص (الغريبة والغامضة) لا تخلو من ملامح إبداعية تربطها بسياقاتها الاجتماعية والتاريخية، وبذلك الجهد يعيد القارئ "الفيلولوجي" قراءة النص بمنظور جديد، حيث يتفاعل مع النص القديم بصفاته هذه، التي يمتزج بها مع ذاته وثقافته مفرزة نتائج أسلوبية متولدة.

- الجهد اللغوي المتعدد الاتجاه.
- تاريخ المفردات وحركتها.
- معرفة بقية التراكيب في هذه النصوص.
- إعادة البناء مرة أخرى.

وبهذا الجهد "السوسوري" التنظيري لعلم "الفيلولوجيا" تمتد مساحته مع مثلث قرائي آخر تتمثل زواياه في المقارنة والدراسة الذاتية لكل أديب، ثم الدراسة التفسيرية (لرفع العجمة أو الغموض) عن النصوص القديمة.

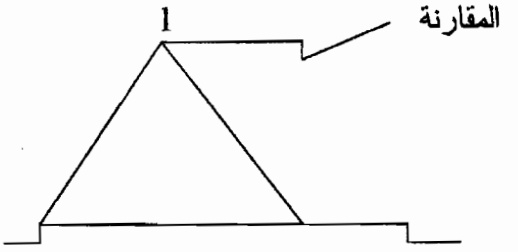

مثلث قرائي آخر متولد من الأول

ولعل الزاوية الثالثة لهذا المثلث التنظيري، أثرت أثرها الواضح في نحت المصطلح "الفيلولوجي"، بأبعاده ووظائفه، فالمصطلح هذا اعتمد على ثنائية تقسيمية، هي (Philo – logy)، وقد تعددت الآراء والاتجاهات التي تحدد طبيعة هذا العلم حتى عُدَّ أصلاً لدراسة فقه اللغة (14).

وتتوالى الاهتمامات "السوسورية" "بدينامية" هذا العلم، المتولدة، والتي تأخذ أشكالها الهندسية من خلال رؤيته اللغوية الأسلوبية، ففي داخل الدراسة " الفيلولوجية " المقارنة نرى ميلاد طور جديد أسماه "دي سوسير " بالطور الثالث: ويقصد به ظهور الدراسة النحوية المقارنة، حيث يقول"أما الطور الثالث، فهو يبدأ عندما اكتشف بعضهم أنه يمكن مقارنة اللغات فيما بينها، وكان ذلك منطلقاً " للفيلولوجيا" المقارنة، أو النحو المقارن (15).

ومن قول " دي سوسير " نلمح الإشارة إلى الاحتذاء "بوولف" أيضاً، كما نلمح اهتمامه بالدراسة النحوية التي أخذت وظيفة جديدة مع رحلة " الفيلولوجيا " المستمرة. ولقد ربط دي سوسير بقوله هذا بين الدراسات " الفيلولوجية " النحوية والدراسات الأسلوبية، ومن خلال هذا الربط المتعمد، يظهر التساوي بين

الدراسة النحوية المقارنة و الدرس "الفيلولوجي" من جهة التراكيب بعد المفردات، وكذلك من جهة الـدلالات بأبعادها – وحينئذ – يمكننا القول إن الدراسات التطبيقية الأسلوبية قد بدأت من هذا الاتجاه.

وتتواصل هذه الرؤية التأسيسية أيضاً مع عالم " الفيلولوجيا " المعروف فرانزبوب "Frainz popp"، الذي يُعد رائداً مؤسساً في هذا الاتجاه، حيث برزت جهوده واضحة في كتابه المعروف باسم " نظام التصريف " الخاص بدراساته التطبيقية على اللغة "السنسكرتية"، وقد أضاف هذا الكتاب مساحات أخرى بارزة في حيز الدرس " الفيلولوجي " المتطور، وتضاف جهود "Popp" هذه إلى جهود "وولف" كذلك، ومن هنا برزت الآثار الكبيرة في ظهور الدراسات الألسنية، ولهذا يقول دي سوسير: " ولعل هذه الأبحاث قد مهدت السبيل لظهور الألسنية التاريخية (16).

لقد أسست هذه الدراسات "الفيلولوجية" للدرس التطبيقي خاصة عند رتشل " Ritcel"، مـن حيـث الاعتماد على الإجراءات العملية التي أجراها على النصوص الأدبية لبيلوت "Pleute"، ولذا يقول " سوسير" إن أعمال رتشل المتعلقة "ببيلوت" يمكن أن تتفق بأنها السنية (17).

فالدرس الألسني إذن ليس إلاّ إفرازاً للدراسات "الفيلولوجية"، وبذلك الرأي يفجر "دي سوسير"نفسه أبعاداً عميقة للدراسة الفيلولوجية مؤكداً أهميتها في الدرس اللغوي والأسلوبي، هذا من جهـة، ومـن جهـة أخرى، فإننا نرى تطوراً غير عشوائي لهذا العلم، يقوم على أصول وقواعد ومناهج تتطور – بدورها – وفق حركة الزمان والمكان، فتنطلق من قواعد راسية.

الزاوية الخامسة:

وإذا كانت "الفيلولوجيا" ترتكز بشكل أساسي وبارز على النصوص المكتوبة، فإن النص الشفاهي، لم يكن له الأهمية في التناول التطبيقي (18). ولقد شكا " دي سوسير " من إهمال الجانب الشفاهي واعتبر ذلك نقصاً بارزا في مجال الدراسة "الفيلولوجية" ذاتها، فيقول: " غير أن الفيلولوجي " في هذا المجال يشكو من نقص متعلق بنقطة معينة، وهي أن أصحابه يتشبثون باللغة المكتوبة في خنوع مشط ساهين في ذلك عن اللغة الحية (19).

والمقصود باللغة الحية لغة المشافهة أو اللغة الشفاهية، ولقـد أطلق عليها مصطلح "اللغة الحيـة"، وذلك لما لها من تداول تواصلي بين الجماعات والأفراد في كل أمة، وما لها أيضا من تناول بعيد في كـل المجالات.

ولقد كانت رغبة علماء اللغة قديماً وحديثاً تتمركز في الاهتمام التطبيقي القائم – أساسـاً – علـى نصوص مكتوبة، لسهولة الحصول عليها وتوثيقها وضبطها، فهي مادة محددة، ولكن من هولاء العلماء مـن نادى بتوسيع المساحة التطبيقية هذه بامتدادها إلى الميدان الشفاهي، وهذا أمر يؤصل لحجم أكبر فـي حيـز الدراسات المقارنة التي تقوم على الجوانب التاريخية، وكذا الجغرافية !" وهذا أمر يدعو إلى الاهتمام الجـاد بهذا العلم، خاصة في مجال الدراسات الأسلوبية التطبيقية (20).

إن حيز هذا العلم غير محدد المساحة، فتشعباته كثيرة قد شملت نواحي عديدة، خاصة في النصوص المكتوبة التي قُرِئَت من كل جانب. لغوي، أسلوبي، دال، يضاف إلى ذلك الدراسات القائمة علـى التحقيـق والدرس والشرح ونشر النصوص والمخطوطات، " فقد تحدد مجال "الفيلولوجيـا" بمعنـاه الـدقيق بتحقيـق النصوص مما يدخله في حيز تحقيق المخطوطات وإعدادها للنشر، وفهم رموز كتابتها القديمة، وكل ما يتعلق بتقديم النصوص والنقوش القديمة على نحو يمكّن من القيام بأبحاث متخصصة فيها " (21).

لقد سَدَّت هذه الدراسة "الفيلولوجية" ثغرات كثيرة وجدت في جدار الدراسات المتصلة بالأدب والبلاغة من قديم، فالبلاغة (بدرسها العتيق) قد واجهت هجوماً عنيفاً، جاءها من الثغرات الفاغرة التي حدثت بفعل درسها التقليدي الجزئي، ولكننا نستطيع القول إن الدراسات الفيلولوجية قد عالجت هذه الثغرات من خلال منهجها المتكامل في دراسة النص المقروء، ولذا فإن " الفيلولوجيا " تستحق أن ينظر إليها نظرة معينة. نظرة ملؤها التقدير، فقد عالجت زواياها منذ النشأة أموراً استعصت على الدرس البلاغي القديم.

لقد أسست هذه الزوايا القواعد الأسلوبية، فانداحت الدوائر مرسومة بدقة ومهارة، مُشكلةً حركة (دينامية) بعيدة المدى، لا تقف عند أركان ضيقة لا تبرحها.

إن الزوايا الفيلولوجية تتكامل لتؤسس قواعد أسلوبية، جذورها ضاربة الامتداد في الأصول النصية في أزمان بعيدة غير محددة.

ويقول " تودوروف ": ((ومهما يكن، فقد اختفت البلاغة من المناهج الدراسية كمادة إجبارية، كما آلت أقسامها وفروعها إلى النسيان))، فكما كان هذا التطور أمراً لا بد منه، فقد حلت الدراسات اللسانية، وتحليل الخطاب، والأسلوبية، محل الدرس البلاغي في الثقافة الغربية. فسجلت بهذا أهمية ما ذهب إليه العرب، أعني البدء بالدرس اللغوي للنص، وتطوير دراسة الخطاب أسلوبياً، وبلاغياً، ودلالياً (22).

بيد أن الأسلوبية لا تعني القطيع الكاملة مع التراث البلاغي، فأسلوبية التعبير عند شارل بالي مثلاً تنبع من البلاغة القديمة، وإن كانت تستخدم وسائل تحليلية حديثة، كما أن كثيراً من البحوث التي قدمتها البلاغة للصور والأشكال التعبيرية، ما زالت مصدراً جديراً بأن يؤخذ في الاعتبار في قسط وافر منه، حيث نجد مجموعة من الملاحظات والتعريفات التي لايستطيع الباحث الأسلوبي أن يهملها. وقد احتفظ جاكوبسون من تراث البلاغة القديم، بهذا الجزء المتصل بالصور والأشكال المتمثلة في الاستعارة والمجاز والكناية، ليفسرها على ضوء مبادئ علم اللغة الحديث، ويوضح كيفية توظيفها الفني في الأدب، الأمر الذي يجعل كثيراً من الباحثين الأسلوبيين يعتقدون، أن المادة التصنيعية الهائلة التي تركها الأقدمون في البلاغة، ما زالت صالحة للاستعمال، في جزء كبير منها.

وتهدف بعض الدراسات الحديثة إلى العثور على صيغة ملائمة للون من التعايش بين البلاغة والأسلوب، بحيث لا تصبح العلاقة بينهما مبنية على التوارث، بل على بعث بلاغة جديدة مواكبة للأسلوب تُكوّن معه ضلعي مثلث يكتمل بالنحو. وإذا كان اختفاء البلاغة التقليدية من الدراسات الإنسانية قد ترك فراغاً كبيراً، فإن علم الأسلوب هو الذي تقدم لملء هذا الفراغ(23).

ومن أبرز المفارقات بين المنظورين البلاغي والأسلوبي، أن البلاغة علم معياري يرسل الأحكام المعيارية التصحيحية، ويرمي إلى " تعليم " مادته. وموضوعه هو بلاغة البيان. أما الأسلوبية فتنفي عن نفسها كل معيارية، وتعزف عن إرسال الأحكام التصحيحية بالمدح أو القدح، ولا تسعى إلى غاية تعليمية البتة.

ويمكن أن نتوصل إلى النتيجة التالية: إن منحى البلاغة متعال، بينما تتجه الأسلوبية اتجاهاً اختبارياً. وهذا يعني أن المحرك للتفكير البلاغي القديم يتسم بتصور ((ما هي))، بموجبه تسبق ماهيات الأشياء وجودها. بينما يتسم التفكير الأسلوبي بالتصور الوجودي الذي بمقتضاه لا تتحدد ماهيات الأشياء إلا من خلال وجودها، ولذلك اعتبرت الأسلوبية أن الأثر الفني يعبر عن تجربة فردية معيشة.

تستوجب الأسلوبية، بحكم ارتباطها بالظاهرة الأدبية، علاقة ما بالنقد الأدبي، ويجيب شبيتزر بأن الأسلوبية هي جسر الألسنية إلى تاريخ الأدب. ويؤكد ويليك ووارين أن الدراسة الألسنية ما إن تكرس نفسها

في خدمة الأدب حتى تستحيل أسلوبية. ويثبت ستاروبنسكي أن الأسلوبية هي رفع الحواجز بين اللغة والتاريخ، وهي بموجب ذلك علم شامل للدلالات المكرسة في جهاز الأثر الأدبي. ويجزم غيرو بأن الأسلوبية مصبها النقد، وبه قوام وجودها (24).

وهكذا اتفق الشعراء والكتاب على أن الأسلوب هو مجال التفرد والتميز، لأنه مزيج من الجمال الفني الذي يتمكن من نقل الواقع وتصويره، كما أنه يستطيع التعبير عن الرؤية العميقة للعالم. وقد يشترط بعض توفر الموهبة في صاحب الأسلوب، وبذلك أصبح الأسلوب وسيلة بيانية للكتابة تتحقق على المستوى الفردي، كما تتحقق على المستوى الجماعي، بل وتتمايز بتمايز المراحل التاريخية للفرد أو للعصر، وهذا يعني أن الأسلوبية تجسد قنطرة بين نظامين، هما: علم اللغة، والنقد الأدبي، مما يتيح لنا الحصول على نتائج خصبة، من حيث رؤية مدى ارتباط الأدب باللغة التي هي مادته الأساسية في عملية الخلق والإبداع، وبهذا أصبحت الأسلوبية علماً شاملاً للدلالات المنبثقة عن الأثر الأدبي، من حيث قراءة النص قراءة لغوية نقدية.

الهوامش

1. دي سوسير، دروس في الألسنية، ص 17.
2. محمود السعران، علم اللغة ص 331.
3. محمود السعران، المرجع نفسه، ص 331.
4. جابر عصفور، قراءة في التراث النقدي، ص 20.
5. محمود السعران، ص 331.
6. محمود السعران، ص 232.
7. لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، ص 129.
8. آ.ف. نشينشرين، الأفكار والأسلوب، ص 17.
9. دي سوسير، دروس في الألسنية، ص 17.
10. سورة يوسف، الآية "6".
11. ابن منظور، لسان العرب، الجزء الأول، ص 171.
12. تمام حسان، "الأصول"، ص 122.
13. دي سوسير، دروس في الألسنية، ص 18.
14. محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص 35.
15. دي سوسير، المرجع السابق نفسه، ص 19.
16. دي سوسير، المرجع السابق نفسه، ص 19.
17. دي سوسير، المرجع السابق نفسه، ص 19.
18. دي سوسير، المرجع السابق نفسه، ص 20.
19. دي سوسير، المرجع السابق نفسه، ص 20.
20. تمام حسان، دراسة ابستمولوجية، ص 25.
21. محمود فهمي حجازي، علم اللغة، ص 35.
22. منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، ص 183.
23. محمد عزام، الأسلوبية منهجاً نقدياً، ص 41.
24. المرجع السابق نفسه، ص 42، 43.

REFERENCE المراجع

1. القرآن الكريم
2. ابن منظور، *لسان العرب*، دار الشعب.
3. السعران، محمود، 1962. *علم اللغة*، مقدمة للقارىء العربي، دار الفكر العربي، القاهرة.
4. بلعبكي، رمزي، 1990. *معجم المصطلحات اللغوية*، دار العلم للملايين، بيروت.
5. حجازي، محمود فهمي،1989. *علم اللغة، مدخل* تاريخي مقارن، الكويت.
6. حسان، تمام، 1981. *الأصول*، دار الثقافة – المغرب.
7. دي سوسير، 1985. *دروس في الألسنية* – الدار العلمية للقلم- طرابلس – ليبيا.
8. عبد البديع، لطفي، 1989. *التركيب اللغوي للأدب*، دار المريخ – الرياض، السعودية.
9. عبد التواب، رمضان، 1977. *فصول في فقه اللغة العربية* - دار التراث – القاهرة.
10. عزام، محمد، 1989. *الأسلوبية منهجاً نقدياً*، وزارة الثقافة – دمشق.
11. عصفور، جابر، 1992. *قراءة في التراث النقدي*، دار سعاد الصباح – القاهرة – الطبعة الأولى.
12. عياشي، منذر، 1990. *مقالات في الأسلوبية*، اتحاد الكتاب العرب- دمشق.
13. مفتاح، محمد، 1987. *دينامية النص*، المركز الثقافي العربي في بيروت، الطبعة الأولى.
14. نشينشرين، أ.ف.، 1978. *الأفكار والأسلوب* – وزارة الثقافة العراقية.